الدروس الخصوصية.. بين المنافع والمخاطر

محمد مرابط
أستاذ بقسم الرياضيات، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف
merabetmohamed02@gmail.com

"التعليم ليس تعلّم الحقائق، ولكن تدريب العقل على التفكير."
ألبرت أينشتاين (1879-1955) Albert Einstein

يهدف هذا العرض إلى التعرف على مفهوم الدروس الخصوصية ودواعي انتشارها، وأسباب لجوء التلاميذ والطلبة إليها، مع ذكر بعض إيجابياتها وسلبياتها، لتصبح هاته الدروس واضحة ومسلط الضوء عليها من جميع جوانبها أمام أهل الحل والعقد ومن يهمهم الأمر.

1. تصدير

إن نهضات الأمم في الشرق والغرب، وفي القديم والحديث، واستفاقاتها من غفواتها، ونهوضها من كبواتها لم ولن تتحقق إلا بفضل المدرسة التي تعتبر وسيلة من وسائل ارتقاء الأفراد والمجتمعات وسبب تطوّرها وتقدّمها وخلاصها من عوامل التخلف.

ومن المعلوم أن معادلةُ التربيةِ والتعليم –التي تعتبر المدرسة ميدانًا لها– تتشكل من ثلاثة عناصر، هي: المعلّم، والتلميذ، والمقرر الدراسي. ولا تُنجِز هذه المعادلة وعودَها، ولا يمكن قطف ثمارها من دون إعادة بناء متوازٍ لكل عناصرها، حتى يتحقق الهدف الأسمى من التعليم ومؤسّساته، ألا وهو الارتقاء بالمتعلّم علميًّا ونفسيًّا ومهاراتيًّا.

ما يعلمه الجمهور الواسع أن النجاح في المسار الدراسي يمثّل الهاجس الأكبر للمتعلمين وأسرهم، مما يجرّهم نحو الاستعانة بالدروس الخصوصية التي تعتبر ظاهرة تربوية متفشية في كل مراحل الوسط التربوي، وهي في تزايد مستمر، بحيث أصبح الإقبال عليها عادة تتزايد في كل موسم، خاصة مع اقتراب موعد الامتحانات.

وكما أن الدروس الخصوصية أصبحت ظاهرة تتصف بالثبات والدوام، ممّا يضاعف خطورتها ويضع علامات استفهام كبرى حول تنظيم المجتمع لذاته ودوافعه وغاياته، فهي تهدد كيان المجتمع وتهدده بالانهيار البطيء. ورغم ما ينجم عنها من آثار على كافة جوانب وعناصر العملية التعليمية، بل على النظام التعليمي برمته، فإنها لم تحظَ بالاهتمام الكافي والموضوعي من قبل أصحاب القرار. فمنهم من يراها "إفسادًا للعلاقة الطيبة بين المعلم وتلميذه"، و "إذلالًا ومهانة للمعلم الذي ينبغي أن يظل صاحب المثل العليا والمكانة الرفيعة والقدوة الحسنة"، ولا "تتيح للطلبة فرصًا متكافئة من الجانب التحصيلي".

نود في هذا العرض أن نتحدث عن ماهية الدروس الخصوصية، كما سنتناول تاريخ ظهورها وأسباب انتشارها. ثم سنجمع أهم ما تواتر من إيجابيات وسلبيات مرتبطة بها، مع التطرق إلى نظرة المجتمع لها. وسنختتم هذا المقال بتسليط الضوء على تجارب بعض الدول مع ظاهرة الدروس الخصوصية.

2. الدروس الخصوصية

الدروس الخصوصية هي "ذلك الجهد التدريسي الذي يُبذل بانتظام وتكرار لصالح التلميذ خارج المدرسة، سواء قام به مدرّس الفصل أو غيره من المدرّسين". وهي أيضًا "كل جهد تعليمي مكرر يحصل عليه التلميذ منفردًا أو في مجموعة نظير مقابل مادي يدفع للقائم به". كما تُعرف بأنها "الدروس التي يؤديها المعلم خارج ساعات الدوام الرسمي، إما في المدرسة حيث يعمل، أو في منزل المتعلم، أو في مكان آخر يتفق عليه المعلم وطالب الدروس الخصوصية".

وقد ظهر مصطلح الدروس الخصوصية بعدة تسميات أخرى، نذكر منها: نظام التعليم الموازي، مافيا الدروس الخصوصية، السوق السوداء للتعليم، التدريس الخاص، نظام تعليم الظل.

3. ظهور الدروس الخصوصية

أول من مارس الدروس الخصوصية في التربية هو الفيلسوف اليوناني سقراط (470-399 ق.م) Socrates، حيث كان معلمًا لأفلاطون (420-340 ق.م) Plato، الذي بدوره كان معلمًا لأرسطو (384-322 ق.م) Aristotle، وهذا الأخير أصبح المعلم الخاص للإسكندر المقدوني (356-323 ق.م).

لقد ظهرت الدروس الخصوصية في روسيا حوالي القرن التاسع عشر، حيث نُشرت إعلانات صحف من قِبل معلمين خصوصيين. أما في الهند، فقد ظهرت إعلانات مماثلة خلال تسعينات القرن التاسع عشر للمعلمين الخصوصيين في المنازل لخدمة أسر الطبقة العليا. وفي اليونان، ظهرت مؤسسات تعليمية تسمى Frontistiria في نهاية القرن التاسع عشر.

كما نشير إلى أنه في اليابان ظهرت مدارس خاصة تسمى Jukus منذ أوائل القرن العشرين، لمساعدة الطلاب في التحضير للامتحانات.

4. أسباب ظهور الدروس الخصوصية

يرى البعض "أن الدافع الأساسي للطلب على الدروس الخصوصية في جميع الأنظمة حول العالم هو التنافس الاجتماعي، ونظرًا لأن التحصيل الأكاديمي هو المحرك الرئيسي لهذه المنافسة، فإن معظم الدروس الخصوصية تكون مدعومة بالرغبة في تحقيق درجات عالية أو على الأقل مقبولة في الامتحانات". يُضاف إلى ذلك:

- ضيق وقت الحصة الدراسية مقارنة بالوقت اللازم لاستيعاب المنهاج الدراسي.
- تحوُّل الدروس الخصوصية إلى موضة ووسيلة تفاخر وتفاضل بين المتعلمين وذويهم.
- ضعف دخل المعلّم.
- التضخم في عدد المتعلمين في المدارس الحكومية، مما يجعل المعلم غير قادر على متابعة تحصيل جميع المتعلمين والتأكد من استيعاب الجميع للدروس.
- تشتت أذهان المتعلمين بما يُبث على مواقع التواصل الاجتماعي والفضائيات من أخبار ورياضة وفنون، على حساب تركيزهم واجتهادهم على ما هو مقرر عليهم من برنامج دراسي.
- انعدام الثقة بالمدارس ومخرجاتها.
- تعتبر الدروس الخصوصية وسيلة لتخفيف القلق عند الأولياء، كما أنها في نظر البعض بديل عن عجز الأولياء عن تقديم الدعم التعليمي للأولاد.
- تسمح الدروس الخصوصية للآباء والأمهات بمتابعة مستويات أبنائهم العلمية دون أن يتولوا هم هذه المسؤولية.

- ميل التلاميذ إليها، خصوصًا قبيل الامتحانات الرسمية.
- كثافة حجم المنهج، فيضطر المُدرّس إلى التسريع في إعطاء المنهج على حساب فهم الطلاب، مع عدم مراعاة اختلاف قدراتهم العقلية، الأمر الذي يدفع الطلاب إلى اللجوء إلى الدروس الخصوصية.
- الاكتظاظ في الأقسام، فكثرة التلاميذ في الفصل الواحد يؤدي إلى عدم مراعاة الفروق الفردية بينهم، وكذلك بعض المشكلات التي تعيق السير العادي للدروس، مثل الإضرابات أو التسريع في إتمام البرامج الدراسية.
- صعوبة المناهج والمقررات الدراسية.
- السعي للحصول على نتائج ومعدلات تسمح لطلبة القسم النهائي بالتسجيل في التخصص المرغوب فيه.

5. إيجابيات الدروس الخصوصية

ظهرت الدروس الخصوصية من أجل تحسين المستوى التعليمي للمتعلم. نحاول تلخيص أهم إيجابياتها فيما يأتي:

- تقوية التلاميذ في المواد الدراسية المقررة، مما يزيد من فرص النجاح والتفوق.
- مساعدة بعض المتعلمين الذين حالت ظروفهم دون الحضور في حجرات المدرسة الحكومية على التدارك.
- مساعدة المتأخرين في التّعلّم على مواكبة أقرانهم.
- دعم الطلبة ذوي النتائج الجيدة للتميز.
- تُعدّ مكملة لدور المدرسة وليست بديلة عنها.
- تساعد المعلم على تحسين حالته الاجتماعية في ظل ضعف مدخوله وزيادة احتياجاته.
- توفر الدروس الخصوصية فرص عمل في القطاع الخاص وزيادة الدخل المادي للمعلم.

6. سلبيات الدروس الخصوصية

الدروس الخصوصية ظاهرة توجس منها كثيرون. ومن هذا المنظور، نرى أن للدروس الخصوصية سلبيات يمكن حصرها فيما يلي:

- تحافظ على التفاوتات الاجتماعية وتؤدي إلى تفاقمها.
- هدم مبدأ تكافؤ الفرص التعليمية.
- تفقد التلميذ ميزة الجد والتنقيب والتحصيل والاعتماد على النفس.
- تؤثر سلبًا على أداء المعلم وتحصيل المتعلم في المدرسة الحكومية.
- تعبر –في بعض الأحيان– على أن هناك تقصيرًا في أداء المعلم وإهمالًا من طرف المتعلم في حجرة التدريس.
- زيادة الأعباء الاقتصادية على الأولياء.
- فقدان الثقة فيما تقدمه المدرسة الحكومية من تحصيل يسمح للمتعلم بتخطي الامتحانات الرسمية بنجاح وتفوق وتميز.
- تجعل المتعلم قليل المبادرة والاجتهاد والتفكير.
- تسبب الدروس الخصوصية إرهاقًا ذهنيًا وجسديًا للمعلم، كما تقلل من هيبة المعلم واحترامه.
- إرهاق المتعلم كونها تشكل عبئًا إضافيًا إلى جانب تمدرسه.

- تعوّد المتعلم على الاعتماد على الغير.
- تعوّد المتعلم على الغياب عن المدرسة مقابل الالتحاق بالدروس الخصوصية.
- تساهم في غياب التواصل العلمي والمعرفي بين المتعلم ومدرسه في المدرسة.
- حوّلت المادة العلمية إلى بضاعة رخيصة تباع في أي مكان بلا رقيب ولا حسيب.
- غيبت روح التفكير السليم لدى المتعلمين، وجمّدت تشغيل قدراتهم العقلية.
- حرمان المتعلم من مزايا العمل الفردي المرتكز على المحاولة المتبوعة بالتكرار.
- تفرز طالبًا غير قادر على تحمّل المسؤولية وإدارة شؤون نفسه... وتقتل فيه الإبداع والابتكار والتجديد.
- قزمت أهداف العمليات التعليمة، وحصرتها في اكتساب المقدرة على اجتياز الامتحانات.
- غيّبت القدوة في الحياة المدرسية التي يحاول المتعلم أن يقتدي بها، ويسير على مثالها بعد أن يقتبس منها ما يزينها من صفات أخلاقية في المظهر والكلام والمعاملة.

7. نظرة المجتمع لظاهرة الدروس الخصوصية

المدرسة عبارة عن مؤسسة اجتماعية تؤثر وتتأثر بالمجتمع. وبطبيعة الحال، هذا الأخير له رؤية حول الدروس الخصوصية، حيث إن هناك من يراها "ظاهرة سلبية لا تعبّر إلا عن جشع وطمع المدرّسين وسعيهم لطرق الكسب غير المشروع، حيث يقصّرون في أداء واجباتهم خلال اليوم الدراسي لكي يجبروا أولياء أمور الطلاب على اللجوء قسرًا إلى هذه الدروس." كما يصفها البعض بأنها "نتاج السمة الاستهلاكية المتصاعدة والمتوالية للمجتمع، حيث ينشغل كل من الآباء والأمهات في وظائفهم اليومية، سواء في البيت أو العمل لتأمين حاجيات الحياة المتزايدة، مما يضطرهم في النهاية لتسليم شؤون أولادهم من الناحية التعليمية للمدرسين الخصوصيين." ويصفها البعض بأنها شرٌّ لا بد منه.

وهناك من يتهم الدروس الخصوصية بأنها أضلّت المدرسة عن طريق سيرها المستقيم، وجرّدتها من دورها الرائد والنزيه المبني على مبدأ تكافؤ الفرص بين أبناء الوطن الواحد، وأخلّت بعملية الفرز التي تمنح التفوّق لمستحقيه وتمنح التفوّق الذي لا يُستحقّ لمن لا يستحقه، بل وهناك من وصفها بـ"الدروس اللصوصية".

لكن بالمقابل، هناك من يراها إيجابية وليست نتاج تقصير من المعلم وإنما نتاج لطبيعة النظام التعليمي، من كثافة البرنامج وصعوبة استيعابه داخل حجرة الدراسة، "مما يضطر المدرس في المدرسة إلى الإسراع في إعطاء المنهج على حساب فهم الطلاب مع عدم مراعاة اختلاف قدراتهم العقلية، الأمر الذي يستوجب على الطلاب اللجوء إلى الدروس الخصوصية "

وفي هذا السياق، هناك من يعتبر أن الدروس الخصوصية في خدمة المتعلم لما توفره من توسيع المعارف والمكتسبات وإثرائها ودعمها.

8. تجارب بعض الدول فيما يخص الدروس الخصوصية

إن تقدم الدول وتطورها يقاس بمدى قدرتها على الاستثمار في التعليم، ومدى استجابة نظامها التعليمي لمتطلبات العصر ومتغيراته. لنأخذ البلدان التالية كنماذج:

- **في اليابان**: بلغت نسبة الذين يتلقون الدروس الخصوصية في طوكيو حوالي 33.7% في المرحلة الابتدائية، و51.9% في المرحلة الإعدادية، و29.3% في المرحلة الثانوية وذلك في سنة 2018.

- **في كوريا الجنوبية**: بلغت نسبة الذين يتلقون الدروس الخصوصية حوالي 83.5% في المرحلة الابتدائية، و71.4% في المرحلة الإعدادية، و67.9% في المرحلة الثانوية وذلك في سنة 2019.
- **في الصين**: أفاد مسح أجراه المعهد الصيني لأبحاث التمويل التعليمي (CIEFR) سنة 2017 أنّ نسبة الالتحاق بالدروس الخصوصية بلغت 60.80% في شمال شرق الصين، و38.1% في الشرق، و38% في الوسط، و30.50% في الغرب.
- **في إنجلترا وويلز**: أجرت مؤسسة ساتن ترست (Sutton Trust) سنة 2019 استطلاعًا، حيث وجدت أن نسبة 27% من الطلاب الذين شملتهم العينة والذين تتراوح أعمارهم بين 11 و16 عامًا قد تلقوا دروسًا خصوصية في وقت ما، وبلغت النسبة في لندن 41%.
- **في الهند**: حسب استطلاع أجري في سنتي 2017 و2018، وجد أن 20% من الطلاب في جميع الصفوف يتلقون دروسًا خصوصية.
- **في اليونان**: وجد أن حوالي 85% من طلاب السنة النهائية في المدارس الثانوية كانوا يتلقون دروسًا خصوصية وذلك في عامي 2017 و2018.
- **في جنوب إفريقيا**: زادت نسبة الالتحاق بالدروس الخصوصية من سنة 2007 إلى سنة 2013 من 4% إلى 29%.
- **في ناميبيا**: زادت نسبة الالتحاق بالدروس الخصوصية من سنة 2007 إلى سنة 2013 من 3% إلى 6%.

الخاتمة

ظاهرة الدروس الخصوصية واقع فرضت وجوده عدة أطراف، هي: الأسرة، والمتعلم، والمعلم، والمنهاج وواضعوه. وتتزايد حدتها عامًا بعد عام، خاصة بالنسبة لتلاميذ المراحل النهائية. وللتقليل من الآثار السلبية للدروس الخصوصية، يجب دراستها كظاهرة بأسلوب علمي وتحديد أسبابها بكل موضوعية، للوصول إلى أساليب علاج ناجعة، مثل بث وعي اجتماعي لتغيير بعض السلوكيات والثقافات التي تميل إلى الدروس الخصوصية وتفضلها على حساب بذل ومضاعفة الجهد الفكري والذهني للمتعلم.

كما تُعد الدروس الخصوصية سلاحًا ذا حدين، فهي يمكن أن تكون نافعة إذا ساهمت في سد ثغرات الاستيعاب عند المتعلم، وتوضيح بعض المبهمات التي بقيت عالقة في ذهنه. لكن على الجانب الآخر، يمكن أن تكون سببًا في مقتل حافز الرغبة والبحث عن المعلومة لدى المتعلم، لذا ذهب بالبعض إلى تشبيه الدروس الخصوصية بالدواء، إذ يمكن لجرعة منطقية منه أن تحل المشكلة، كما يمكن لجرعة زائدة أن تفاقم المشكلة.

إضافة إلى ما سبق، وللحد من انتشار الدروس الخصوصية، يجب تصحيح أوضاع المدرسين، وتطوير المناهج وأسلوب الامتحانات، بما لا يجعل المتعلم يعتمد على الحفظ والتلقين، وإنما يكتسب المهارات التي تساعده على الفهم والتحليل.